

الجدور الأيديولوجية للعنصرية الصهيونية

الجو السياسي في القرن التاسع عشر :

عندما ظهر عمالقة الحركة الصهيونية على المسرح الأدبي ونشرت المؤلفات التلاسيكية الصهيونية ، كان المجتمع الإنساني قد وصل بقطعة « الانطلاق » في التقدم ، النقطة التي طالما انتظرها الإنسان منذ وضع لبناتها الأولى في هذه البلاد ، بلاد الرافدين ، ونقلها لا إلى الشرق الأوسط وإنما إلى أوروبا أيضا . وسنيجة ذلك ظهرت « الهوة » الشهيرة بين إنجازات الرجل الأبيض والعجز الخيف لبقية البشرية ، وكان لا بد لذلك من أن يغذي وهم تفوق الجنس الأبيض .

ولئن كان هناك أيضا « هوات » تفصل بين ما سمي بالأجناس البيضاء نفسها ، إذ كانت الشعوب الأوروبية قد دخلت في صراع مرير فيما بينها للفوز بمكاسب إقليمية واستعمارية واقتصادية . كان هناك سباق في الاستيلاء على المستعمرات وسباق فسي النسل وكان العامل الكليل بكسب أي من تلك السباقات - كما في أي سباقات رياضية - هو الإيمان بالقدرة على الفوز . وهكذا ظهرت الحاجة إلى سند أيديولوجي تقوم عليه فلسفة عنصرية .

العنصرية الأوروبية :

العنصرية ليست شيئا جديدا . الجديد فيها هو الثوب العلمي الذي اعطى لها منذ القرن التاسع عشر ، والشخصية البارزة في هذا الصدد هي شخصية شارل داروين . لقد سمع العلماء كيف زالت عن وجه البسيطة أنواع عديدة من الحيوان بسبب عدم صلاحها للبقاء . وطبق ذلك على البشر واستنتج منه أن زوال أقوام من التاريخ كالبابليين والرومان وبقاء قوم كاليهود يعني أن اليهود أصلح للبقاء من السالفين . على يسار داروين وقف ماركس بفلسفته عن تطور المجتمع والصراع الطبقي ، مما أشقه من نظرية داروين ، وعلى يمينه وقف فريدريك نيتشه بآرائه عن الرجل المتفوق والصراع القومي ، وهي آراء أسمدتها من فكرة الصراع على البقاء وبقاء الأصلح . وكما سنرى بعد قليل ، فإن الصهاينة لم يترددوا لحظة واحدة في تحديد موقفهم . إذ أنهم بعد رفضهم لماركس تمسكوا بفكرة الصراع القومي ضد فكرة النزاع الطبقي .

وكان يوهان غوتليب فخته قد رسم الخطوط الرئيسية للعنصرية الألمانية قبل عدة سنوات من نشر « أصل الأنواع » لداروين عام 1859 . وبموجب هذه الأفكار فإن على الإيمان تبقى منفصلة عن بعضها البعض ،

هناك الآن سيل من الوثائق تثبت الممارسات الفائمة على المعرفة في إسرائيل . والواقع أن معادي الصهيونية قد أصبحوا اليوم قاندين على فضح ممارساتها . والشيء الذي بقي مهملا هو وضع هذه الممارسات في إطارها الأيديولوجي ، وهو إطار لا يحاول الصهاينة التنصل منه . وقد لفتت المحكمة العليا الإسرائيلية النظر إلى أهمية التأثيرات في قضية أولاد شاليت (1970) وأكدت على قيمة العنصر العرقي والدم المشترك . وقد كشف القاضي كستر عن حقيقة مهمة بقوله « أن من الصعب أن نتكلم في هذه الأيام عن العرق ولكن الصعوبة هي بصورة رئيسية صعوبة لغوية من حيث أن النازيين اعطوا كلمة « العرق » رائحة كريهة . بيد أن علينا أن لا نسمح للنازيين أن يديروا عقولنا بعيدا عن القيمة الحقيقية لهذه الميزة » . أن هذه الرائحة الكريهة بالذات هي التي تجعل الصهاينة الآن يتظاهرون بجرح كرامتهم . فقبل عدة أجيال كانوا يشعرون بكرامة مجروحة حقا وحقيقة لو أن أحدا نفى عنهم صفة العنصرية .

إنها مسألة عالين مختلفين تماما . في العالم القديم ، عالم ما قبل الثورة البلشفية ، كان من العار الشنيع للإنسان أن يسير في صحبة الماركسيين والاشتراكيين . كان المجتمع يقضي بأن على الرجل المحترم أن يكون وطنيا قوميا بنفس الوقت على الوطني والقومي أن يؤمن بتفوق قومه ونقاء عنصره . وربما شعرنا بصدمة عندما نسمع بأن شخصيات مثل برنارد شو وتوماس مان وشارلس داروين وهربرت سينسر وتوماس كارلايل وكارل كاوتسكي وكارل يونغ وأوتو هايننغر ، أيدوا جميعا العنصرية بشكل أو بآخر .

وقد انقلبت الآية اليوم . لم يعد هناك سياسي في أيامنا هذه يقوى على تحمل تهمة العنصرية . وقد ترك الاتجاهان معا آثارهما على القومية . وبفتر ما ألفنا اليوم تلون الحركات القومية والتحررية في العالم الثالث بصبغة الماركسية والاشتراكية ، كان المالوف أن نجد أن القومية في أوروبا تستعمل لفه العنصرين .

ولما كانت القومية العربية قد بلغت سن نضجها في القرن العشرين فقد رأيناها تلون بانوار الاشتراكية بينما تلونت الصهيونية التي بلغت سن نضجها في القرن التاسع عشر بالفكر العنصري .

فيكرس نفسه لخدمه فومك بخدم الاسانية باحسن صوره ، وينبغي ان نحكم الامة بواسطة النخبه . ولا يمكن لليهود ان يمتنعوا بهصالح مشتركه مع الاخرين ، والخروج الوحيد هو تهجيرهم الى فلسطين . وما عدا ذلك فالوسيله الوحيدة لتحويلهم الى مواطنين طبيعيين هي في قطع رؤوسهم وتركيب رؤوس جديده لهم خالية من اي فكرة يهودية .

كانت افكار فخه تأملية واعصابية ، ولكن العنصرية ، مع تقدم العلوم ، انسببت شكلا واضحا ومحددا . فبانسبه الى فخه مثلا ، ان الحدود الانليميه لالامه خاضعة للحدود الفقيه . وسم تصحيح ذلك فيما بعد بظهور علم الاجناس الذي ترك اثارا كبيرا على موضوعنا . ثم تعد الامة مجرد مجموعة تكلم لغة مشابهة وانما مجموعة تتميز بدم مشترك وسلالة واحدة ونفاسيم جسمية واحدة . وبدأت فكرة داروين عن الانتقاء الطبيعي تلعب ادوارا خطيرة في هذه الميادين . ظهر مثلا علم الوراثة ، او علم « الصحة العرقية » كما سماه اندكتور انفريد بلوينز ، وادى الى انتشار جمعيات الصحة العرقية في اواسط اوربا . ومن انجدير باولئك الذين يستشهدون بكلمات عوندا متبر عن ارتفاع نسبة الولادة بين العرب وخطرها على يهوديه اسرائيل ان يذكروا كلمات الكاتب الانجليزي العنصري و . ر . غريك في تلك التحفة عن « السلبيين المنحلين » (الارلنديين والويلزيين .. الخ) الذين كانوا يتزايدون بسرعة اكثر من تزايد السكسون العظماء وبالتالي اعطوا الفرصة لتعرق الرديء بالفلبه نتيجة صفاته السيئة (2) .

لقد كان العلم الحديث في مراحله الاولى وكانت معظم الاكتشافات تقوم على ملاحظات شخصية وليس على المعلومات الاحصائية المحسوبة . وحى شخصيه مثل هيرت سبنسر اعتقد بان القدم رهن بنشاط الرجل الابيض فقط . وبينما ندرك الان ان خيروسيله لتحسين الانواع هي التهجين بينها ، اشار سبنسر بالنصح ضد خلط الاصناف المخلفه. وقد استهوى علم الاجناس ، الحديث الولادة ، موسى هس مؤلف « روما وانفدس » واحد رواد الصهيونية البارزين . وبعد مزواجه هذا العلم باليهودية ، توصل هس الى نظرياته العرفيه انصهيونيه ، فرأى ان الاختلافات بين الشعوب فطرية ومسورونه وليست مكسبه ، أبدية وليست زائلة .

وفي انحلل السياسي الاجهسامي ، لعبت مدرسة المؤرخين البروسيين بزعامه هنريخ فون تريتشكه دورا حاسما في فولبة الفكر الرجعي في اوربا وتركت اثرا عميقا على الصهيونية من جانب وعلى الاشتراكية الوطنية الالمانية من جانب آخر . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، طبعت موسوعة « كولورغشختنه » (تاريخ الثقافة) للكاتب الالمانى فان هلفالد وضمت ابحاثا لعشرين مفكرا عنصريا شهيرا ، بمن فيهم بكنز وكارل فوغت .

ان الاراء التي وردت في هذه الموسوعة قد ركزت على الصيغ المهودة : العرق هو الاساس ، العرق الابيض هو المسيطر ، نفاء العرق ضروري ، النساء والزواج مخلوقات منحلطة ، المساواة سخف ، الهوة بين الاجناس المنفوقة والاجناس الملونة ستتسع ، اليهود غرباء وسيبقون كذلك .

واكثر من ذلك شهرة كتاب « اسس القرن التاسع عشر » للكاتب ه . اس . تشامبرلين الذي جعل من العلم فلسفة عرقية ، وذلك قبل ان يشرع بالتهجم على اليهود والسود . وقد تميز بدخضه للامنطقية العنصريين الذين يقرون بنقاء الدم اليهودي ، وفي الوقت نفسه يتهمون اليهود بالرداءة او مركب النقص .

ويعتقد تشامبرلين ان اليهود نتاج ذرية هي خليط من البدو

الساميين ومن الحثيين والسوريين والاموريين .

اما التطبيق العملي للفلسفة العنصرية فقد نادى به القومي الالمانى فون تريتشكه الذي اصبحت كتابانه ، كبا سياسيه ارنشاديه للنازيين ، وقد حظيت بشعبية كبيرة قبل ذلك في الجامعات الالمانية ، حيث كان الصهاينة الشبان يتلقون عليهم .

ومن التأثيرات التي نادرا ما ذكرت ، ناير مدرسه « اذصلاح الاستعماري » فقد دعا زعماء هذه المدرسة ، اثناء اشداد البطالة والفقر ، الى تحويل السكان الفائضين الى المستعمرات . وقد استلهمت الصهيونية معظم شعاراتها العملية من تلك المدرسة ، بما في ذلك التطلب على التضخم السكاني بواسطه انهجير واستخدام المهاجرين في الزراعة والتأكيد على اهمية التنايه وتحقيق هذا المشروع الاستعماري تح ظل دستور من سلطه استعمارية وبالتالي ممارسة الحكم الذاتي في حماية من تحت السلطة . ومن الاهمية بمكان ملاحظة ان المصلح الاستعماري الرائد اللورد اشلي ، كان ايضا رائدا في الحركة الصهيونية . ولم يكن للمصلحين الاستعماريين خيار آخر سوى ان يعلنوا ان شعوب المستعمرات انخاملة والمنحلطة هي في ادنى مرتبات الشعوب وان يعلنوا ايمانهم بقدره الجنس الابيض ، والا فلن يكون نامكانهم اغصاب الارض من ابناء البلد ولن يستطيعوا ان يجذبوا مهاجرين بيضا ان هم ساووههم ببناء البلد . وقد واجهت الوكالة اليهوديه هذه المسئلة على الدوام . فهي لم تستطع رفع مستوى العرب الى مستوى اليهود بسبب مواردها المحدودة ، كما انها لم تستطع ان تجعل اليهود يعيشون بمستوى مدن كاستوى اندي يعيش فيه العرب ، مخافة ان يرحل اليهود . وليس لديهم من خيار سوى ان يطبقوا قانون التمييز العنصري .

وعلى اية حال ، لم يكن ذلك هو الجو السياسي الكامل ، فقد كان هناك في الطرف المقابل كارل ماركس ورواده جيش من المفكرين الاشتراكيين الذين كانوا قد اجتذبوا اتباعا كثيرين من بين المثقفين اليهود . ولكن انصهائنه لم يردعهم رادع . فتتديهم بماركس من جهة ، وبالانصهار الحر من جهة ثانية لم يترك لهم مجالا سوى الانخراط في الجناح اليميني المتطرف لعنصريه القومية .

العنصرية القومية :

ان الصهاينة ككل العنصريين ، عثروا على ضانتهن المنشودة في نيتشه الذي عبر في مناسبات عديدة عن اعجابيه الشديد بالديين اليهودي ، كدين اكثر رجولة من الدين المسيحي الذي يتميز بانثونه وعاطفيته ونفاقه . (3) والواقع ان بالامكان اعتبار نيتشه من الصهاينة غير اليهود الذين تبنا فكرة العودة الى فلسطين كوسيلة لاسمات اليهود البولنديين (4) . لقد كان هيرتزل واحاد حاعام من تلاميذه الصهاينة ، ولكن منافسة هيرتزل لعلمه الالمانى ، ركزت على تهجيد القوة بشكل واضح . اما احاد حاعام فقد فتنش في كتابات نيتشه عما يرضي مهله واستعداده للقبول بصوفية التفوق . ومن ناحية ثانية فقد استحوذت فلسفة نيتشه على عقول بعض المثقفين والطلاب اليهود . وكما ثار نيتشه ضد المسيحية ، فقد سخر المثقفون اليهود من ضعف وميوعات المظاهر الدينية والمعنوية للدين اليهودي . وقد تعرض الى هؤلاء اليهود « احاد حاعام » في تعليقه الشهير على كتاب نيتشه « اعادة تقييم القيم » .

(Umwertung aller werte)

مهرجون .. الخ . وقد لفت الانتظار الى الشويه الاحق شبكات ومعل
عيون هؤلاء الفنانين بسبب اصابتهم بالاختلال والهستيريا . وهذا
نموذج على بطلان الادعاءات العلمية للفكر العنصري .

ويقول ايضا : « ان الواقعية كلمه فارغه تتبع من نظريات
جمالية غامضة تتميز بالتشاؤم والميل انذي لا يقاوم الافكار
الفاسفة والاساليب العبير الاكثر سوفية وفذارة » (٩) .

وفي مطلع آخر نبا فيه بانتعاش النازية بشنن اخطار العين
المعاصر وبشأن الحاجه التي جعلت الفنانين والمرضى عافرين ، هاجم
نوردو الوافعيين والانطباعيين وقال : « يجب على المنحطين ان يسفطوا ،
فهم لا يتمكنون من تكييف انفسهم مع شروط الطبيعة والحضارة ، ولا
يتكفون من الحفاظ على انفسهم في الكفاح من اجل البقاء ضد
الاصحاء . انهم يصبحون منهكي الاعصاب ، هستيريين ، يتسببون
في ولادة المنحطين وبهذه الطريقة يقضون على جنسهم » (١٠) .
لقد كانت تلك كلمات مضيضة اتخذها النازيون اساسا
لسياستهم الوحشية في المجالات المشار اليها . ومهما يكن من امر ،
فقد كانت تلك الكلمات مجهولة تماما هي اسرائيل . ففي الوقت
الذي قامت فيه الدولة اليهودية كان انصار الفن المعاصر قد اصبح
حقيقة لا مراء فيها . فمعظم الفنانين وسائفة الفن الذين هاجروا
الى فلسطين كانوا ملتزمين بالاساليب الحديثة . ان تعزيم الفن
لا يكون الا في نظام كلي قائم على الغاء الفردية ، وهذا وضع لا ينطبق
على اسرائيل الان .

لقد كان الصهاينة يميلون دائما الى بريطانيا والولايات المتحدة ،
وقد عبر مانس نوردو عن هذه اميول امانته بمقابلة مواطني هذين
البلدين بمواضي بلدان العارة الاوروبية المنحطين ، وقال ان «العرق»
« الانكلوسكسوني » هو بطبيعته موفور الصحة وسليم الفكر .
والواقع انه تيس هناك شيء اسمه « العرق » « الانكلوسكسوني » ولم
يشرح لنا نوردو من اين احذر تشارلز ديكنز ولماذا وجسدت
الواقعية الهنسيبرية مكانا دائما لها في انكلترا . وهذا بالضبط
مجرد مناقض آخر في التفكير العنصري .

ان « ف . جابونسكي » ، أحد رعماء النحريين الفاضيين ،
قد اخذ وحيه الثقافي من المدرسة العنصرية الفرنسية ، ودوس
ريشان بشكل خاص .

اما اسلوبه السياسي فقد استعاره كاملا من النازيين . وليس
من الضروري ان نتوقف نويلا عند تنديد كبار الصهاينة انفسهم
بعنصريته . ولكن كفيما ان تشير هنا الى ان حزبه قد حصل
على ثلث اصوات الناخبين الصهاينة . كما رشح هو نفسه في
احدى المرات لرئاسة المنظمة اليهودية .

التيار العنصري :

حتى تترك تمام الادراك حدود التفارب بين الايدولوجية
الصهيونية وتعاليم العنصريين يجب ان نعود الى انفكرة الرئيسية
في كلتا الحركتين .

ان الفكرة الجوهريه التي بدونها لا يكون ثمة هدف من وراء
الحركة الصهيونية واسرائيل هي : ان العالم يشتمل على امم مختلفة
في نزاع دائم ، وقد بلغ هذا الصراع مستويات لا تطاق حين وصل
الى اليهود الذين اصبحوا عناصر غير مرغوب فيها واهدافا
سهلة ، بسبب عدم وجود وطن لهم . ان اصطهاد اليهود لا نهاية
له ، والخلاص الوحيد منه يكمن في ايجاد وطن لهم . وغنسي
من القول ان هذا هو بالضبط ما كان يشير به العنصريون الاوروبيون .

ويقول في بحثه هذا ان اليهودية احتضنت « النيشوية »
ولكن نيتشه لكونه المانيا رأى التفوق من خلال الصفات الارية ،
وهكذا ولدت اسطورة « الوحش الابيض العادل » ، ذلك الوحش القوي
الجميل من النوع الالمانى الذي يجب ان يسود العالم . ولو كان
نيتشه يوديا لاختار رجله المتفوق من بين اليهود بمد ان يكون
قد اضفى عليه السحة الاخلاقية . وليس هناك من حاجة لخلق
نيشوية يهودية لانها موجودة منذ قرون . « فاتباع نيتشه يجب
ان يعرفوا ان اليهودية لم توطد نفسها على الرحمة وحدها ،
ولم تجعل رجلا المتفوق خاضعا لرجال العاديين ، وذلك بالرغم
من ان كل الهدف من وجوده هو ببساطة زيادة سعادة عامة
الناس » .

ويذهب « احاد حاغام » الى ابعد من ذلك فيؤكد ان اليهودية
سيفت النيشوية بعدة قرون بفكرة الرجل اليهودي المتفوق ، الرجل
التي ، « الصديق » ، الذي هو غاية في حد ذاته ، والذي خلق
العالم من اجله .

وكما ان نيتشه حاول ان يبرهن على ان ظهور الانسان المتفوق
يؤدي الى ايجاد الشروط الضرورية لظهور الامة المتفوقة ، فان
« احاد حاغام » استنتج « ان هذه الفكرة تضح آهافا واسعة تظهر
اليهودية من خلالها بثوب جديد وباحر » . ويقول : ان كثيرا من
عيوب اليهودية التي يعيرنا بها الغرباء والنسي يحاول علماءنا
ان يدحضوها او يبرروها نصيح صفات ايجابية ، اذا ما نظر اليها
على ضوء تلك الفكرة .

ثم يمضي فيستشهد بنيتشه لمهوية حجته العائله : « ان باماكن
جميع اصراد العيائل والعائلات ان يصلوا الى مستوى الرجل المتفوق » .
وهذا هو سبب عدم محاولته ان يهود زباده عددهم « لان من خصائص
النوع المتفوق ، ان لا يرضى بالليل من فيمه عن طريق جممل
الوجبات المنوطة به وحده ، واجبات تحصى جميع الرجال » . ولكن
المشكلة مع اليهود ، هي انهم لم يقدروا تماما نوعيه التفوق
اليهودي (٥) ، فلكي ينبعث هذا العرن المتفوق لا بد له من مكان
ثابت مستقر « حتى تتاح له الفرصة نانية لتطوير عبقريته وابلغ
رسالته كاملة متفوقة (٦) .

ان الذين سنحت لهم الفرصة لافاضه علاقات مع اسرائيليين او
شاهدوا تصرف اسرائيل قد صدموا بتجاوزات ذلك الشعور بالتفوق ،
وبثقتهم الزائدة بالنفس وبالتالي بعجزتهم .

ان معظم الناس يعرفون سيزار لامبروسو لمساهماته العنصرية
في علم الجريمة (٧) ، ولكن قليلا منهم يعرفون موقفه الصهيوني .

وقد آتت افكاره بشكل خاص في ماكس نوردو - المساعد
الايمان لهيرتزل الذي وصف لامبروسو بقوله : « انه اصخم ظاهرة
عقلية في هذا القرن » . وحاول نوردو في كتاب « الانحلال » ان
يثبت ان الانحلال « ليس الا اعراضا مرضيا عن النموذج الاصلي » .
وفي هجوم عنيف له ضد الفن المعاصر في ذلك الوقت ، او بالاحرى
ضد الواقعية على وجه التحديد ، فارت الفنانين المعاصرين بمجرمي
لامبروسو ولصوصه وقتله . وقال : « ان التطور الذهني للمتحرفين
يشتمل على نفس التشوهات التي تبدو في نموهم الجسدي . فعدم
التناسق في الوجه والجمجمة له ما يقابله في مستوى الطاقات
الذهنية . ففي حين ان بعض هذه الطاقات تتوقف تماما عن
النمو يجد ان بعضها يشكو من افراط شديد في النمو (٨) » .
وهو يتحدث هنا عن تولستوي واميل زولا وابسن وبلزاك وهوبتمان
ومونييه ومانييه ودوميه ، الذين وصفهم بنعت مثل : مهززون ،
مرتعفون ، مهوسون ، فوضويون مثيرون للاشمزاز ، بذيئون ،

ان رفض تنظيم الدولي والاخوة الانسانيه ، والحكومة انصاليه . والانصار التدرجي للفوميات والمناطق ، كل هذه افكار مشتركة في كلنا التركينين ، وهي توضح الموقف الساحر الذي تقفه اسرائيل من ايام المنحة ، كما توضح موقف دول المتور حيال جامعه الامم . ان تطابق الاراء بين الصهيونية والتمصرية قد وصل الى اعصى مداه في الموضوع المتعلق باليهود ، وبالمسائل اليهوديه . فالتمصريون هم الذين قالوا بان العنصر اليهودي عنصر متميز غريب عن اوربا بسبب اصله السامي . ان افكارا مثل فكرة نقاء الدم ، وخلود اليهود ، و« الخصوصية » اليهودية قد شجعت بها الادب التمصري . وينطبق الامر نفسه كذلك على فكرة حتمية اضهاد اليهود قد صاغها الموسوعه الثقافية على النحو التالي : ان التعامل ضد اليهود هو نوع من المسائر الفريزية والطبيعية ، التي تظهر في اي وقت يحثك فيه رجال من سلالات مختلفة بعضهم بالعض الاخر (١١) . ومثل هذه الفكرة تجد ما يماثلها في كتابات بنسكير وموسس هيس ، وعمليا في كتابات المفكرين الصهاينة كافة .

ان للتمصريين وجهة نظر مزدوجة فيما يخص بقاء السلالة . ان نيتشه مثلا جتها في المرتبة الاولى على صعيد التطور ، واعتبر ان وجودها قد يساعد على تحسين العنصر الالمانى ، في حين ان ترشكه هو صاحب التعبير الشهير « ان اليهود هم سوء طالعا » الذي اصبح شعار النازيين ، وحدث ان بعض التمصريين المنطقيين مع انفسهم جعلوا من الذكاء اليهودي والابداع والقدرة على البقاء ، ظواهر تابعة من نقاء الدم اليهودي ، في حين نظر آخرون كهتلر الى اليهود وكانهم طفيليات ، غير قادرة على انتاج اي شيء خاص بها .

ويمكن استبيان ازدواجية اخرى في الادب الصهيوني . فقد راي موسى هيس انجمال اكامل في انوجه اليهوديه ، وان نوايرمان علم الثقة بالذكاء والابتكار اليهوديين ، على عكس ذلك فقد سمر هيرتزل بالاشتمزاز من بشاعة القسماات اليهودية وعبر عن شكوكه بشأن قابلية اليهود واستحقاقهم للعيش في ظل حكم ديمقراطي وجمهوري . فهم اعد ما يكونون عن العلق والابتكار ، ولم ير هيرتزل انهم قادرون على تطوير اي شيء خاص بهم . وهذه النظرة الاخيرة هاجمها بشراسة « احاد عام » في تقييمه لمؤسس الصهيونية السياسية . (١٢)

ان اسنابه بين الصهيونية واعداء انسانية من حيث الاراء والاهداف هو موضوع تطرق اليه كثيرون في تعليقات عديدة . والصهاينة انفسهم يقرون بذلك عندما لا ينساقون وراء الاسلوب النمائي . ان موضوع الخلاف الوحيد بينهم وبين هتلر قد اتاره هذا الاخير في كتابه « كفاحي » ، مغيرا انهم اناس غير شرفاء ، ينادون بالذهاب الى فلسطين ولا يقومون بذلك فعلا . ومن النقد الخطير الذي وجه الى هيرتزل كونه شديد الحرص على كسب رضا المعادين للسامية ، ومستفيدا من دعمهم .

وتصادف هذه الازدواجية نفسها في كتاب لامبروسو « الرجل المجرم » ، فاليهودي في هذا الكتاب هو عموما افضل من البقية ، وهو اقل ميلا الى الجريمة ، ولكنه اكثر انتهاكا لبعض قواعد الشرف ، فهو مثلا يميل للخداع والتزوير والفجور . وهذا ما يعتبره المؤلف متوارثا لدى اليهود (١٣) .

النقاء وتفوق النقاء :

ان الصنف نقطة في النظرية التمصرية تكمن في المستوى

الذئبة بان اليهود هم انقى سلالة . ان ملاحظة بسيطة بالعين المجردة ، كافية لابطال هذا الاعتقاد ، ولكن هذا انهم ما زال قائما ومستمر .

لقد قال الزعيم الصهيوني الامريكى لويس براندي : « ان الزواج المختلط كان محدودا جدا . لذلك فان نسبة الدم الاجنبي لدى اليهود اليوم منخفضة جدا » (١٤) . وكان هتلر قد اورد كلاما مشابها لذلك حين قال : « اين نثر على شعب كالثعب اليهودي لم تطرأ عليه الا تغيرات قليلة جدا في الذنيه والشخصية على مدى الفسي سنة . » (١٥)

وقد حافظ اليهود من بنسكير الى بن غوريون على مفهوم انفسهم التمصري . وكرروا الاشارات المطلقة بمداد الساميه للالف اليهودي والنسعر اليهودي . . انج . والفرق الوحيد هو ان المعاديين للسامية ، وكذلك هيرتزل نسبوا الى الجسم اليهودي ملاحظات استهجابية في حين عبر عنه انصهائنه بمصطلحات جمالية . فقد زعم هيس في كتابه « روما واندس » ان العنصر اليهودي يعي غير مفتوس ، فالانوف اليهودية لا يمكن ان يطرا عليها اي تغيير ، كما ان اشعر ايهودي الاسود المتعوج لا يمكن ان يتغير بمجرد انزغبة في ذلك . واصاف قوله : ان تلك الملامح اليهودية نس من تعابير « روحيه جميلة » .

قد لا يكون الصهاينة والقيين تمام الثقة من قصة النقاء ولكنهم مضطرون للقبول بها لاسباب سياسية . فيدون صحة الانحدار المباشر من الاسرائيلين القدامى تقوض دعاواهم في فلسطين . وهذا بعد كل شيء ، ما اشار اليه هرتزل في كتابه « الدولة اليهودية » : ان اليهود بقوا شعبا واحدا وعرقا متميزا . . ان قومتهتمهم المتهيزة لا يمكن ، ولن ، ويجب ان لا تقوض . لذلك ، لا يوجد غير حل واحد فقط للمسألة اليهودية هو « الدولة ليهودية » .

ان موضوع النقاء العرقي ، والاصل المختلط ، اصبح مشكلة معرجة بالنسبة لاسرائيل ، كما كان الامر بالنسبة للرايح الثالث في المانيا ، وكما هو الامر حاليا بالنسبة لجنوب افريقيا . ان سؤال « من هو اليهودي » ؟ حيوي جدا لحل مشاكل مختلفة تتراوح بين استيطان اليهود في اسرائيل . . وبين التمييزات الخاصة بغريق « ماكابي » لكرة السلة . مما ينتج عنه تمثيلات هزلية حقيقية .

ليس هناك سوء كبير في الاعتقاد بالنقاء التمصري ، ولكن المسألة اتخذ ابعادا خطيرة عندما يتحول النقاء الى علامة تفوق كما كان الامر بالنسبة لعنصرية القرن التاسع عشر . وقد عبر ن . سوكولو رئيس المنظمة الصهيونية عن وجهة النظر التمصرية بقوله : « تشتمل الطبيعة على اجناس مختلفة ، فالصقر لا يجهد نفسه من اجل السمك ، ولا الاسد من اجل الفطة . انظروا الى الاشجار ، والى سنابل القمح المنتصبه ، هل كانت تنمو بهذا الشكل الرائع ، وهل كانت لتكبر بمثل هذا الفنى وهذه النضارة ، لو تم خلطها بالقوة ، وامتصت الواحدة منها رحيق الاخرى » (١٦) .

وقد صاغ ترشكه نفس هذه الافكار بكلمات مختلفة « ان الطبيعة تثار لنفسها من اي اختلاط في الانواع وذلك بجعل الانواع العاليية تستسلم للانواع المتدنية . وحتى تزواج الحصان والحمار ينتج عنه مخلوق يمتلك صفات الحيوان الاقل شانا ، وكذلك الامر بالنسبة الى البشر (١٧) . اما بالنسبة الى موسى هيس الانثروبولوجي ، فان النوع اليهودي ليس فقط موهوبا بذكاء وثقافة مسيطرين ، ولكنه ايضا متفوق في الزواج : « اليهود وحدهم لديهم الشعور الحقيقي بتغليب الحب الامومي على الحب الجنسي » « ان القلب اليهودي وحده ، يستطيع ان يفسح مجالا للحب العميم تجاه العائلة » « اليهود

وحدهم قادرين على الارتقاء روحيا (١٨) . ان مثل هذه الادعاءات الشوفينية المتطرفة تأخذ حجم ظاهرة طاغية في الادب الصهيوني. ان كل شيء في اعتقادهم من عمل اليهود منذ اكتشاف الكتابة حتى رحلات الفضاء .

والتأكيد على الكفاء اليهودي وعلى الاوصاف الموروثة ، انما يخدم غرضا سياسيا لانه بفضل تلك القابليات الخارقة قد يعيد فلسطين .

ان الخطوة التالية في الانتقال نحو التمييز العنصري ، تشمل في الايمان بالتفوق القومي ، مما يستتبع الاعتقاد بدونية الاخرين، وبصورة خاصة العرب من وجهة النظر الصهيونية . والتهمة الرئيسية الموجهة ضد العرب هي أنهم شعب رجسي مسؤول عن انحطاط فلسطين والشرق الاوسط برمته . والكتابات الاكثر معاداة للعرب تنفي عنهم كل اسهاماتهم في الحضارة . فمجد الاندلس الرائع لم يكن من عمل العرب بل من عمل اليهود . واسبانيا نفسها تم يفحها من العرب وانما افنتحها البربر الذين هم من اصل يهودي (١٩) .

ويحلل و.ب. زف : الشخصية العربية بمصطلحات عنصرية نموذجية . « في الواقع ليس هناك عرب في اي مكان . وليس هناك حتى سلالة مختلطة متجانسة الى حد ما . ففي الجزيرة العربية انقطع العربي عن الوجود ، والذين اخذوا مكانه هم شعب خليط متناثر من مستوى متدن في ميزان التطور الانساني ، يتكلم اللسان العربي » وفي مكان اخر يضيف : « بما ان نقاء الدم في اممنا (محمد هو شرط نقاء النسل ، فابن هم احفاد قريش الان ؟ وحتى في قلب الصحراء العربية فان السلالة قد تدهنت دنسا كبيرا خلال القرون الماضية بفعل تدفق الجوارى القادمات من السودان ، ومن بعض الاماكن الاخرى من افريقيا) . وعلى هذا فان الدم الافريقي مسؤول عن تردي السلالة العربية في ميزان التطور الانساني . وسوريا نموذج على ذلك حيث ان الشعب فيها اخلاط من حيث الدم والمقليات . وبمضي « زف » فيمتحن العيون وشكل الوجه . الخ ليدل على ان العرب الحاليين ليسوا عربا على الاطلاق » (٢٠) .

وقد عالج سوكولو ايضا في كتابه « تاريخ الصهيونية » مسألة التخلط الوروث لدى العرب ، والشرقيين بصورة عامة ، بينما تكهن بن فوريون بان العرب لن يتخلصوا ابدا من الالطاع ومن التخلط . وهناك عدة وجهات نظر مختلفة تجاه العرب ، ولكن معظم الصهاينة يتفقون على ان الطريقة الوحيدة للتعامل مع العرب هي القوة ، وان العرب لا يستطيعون الانتقال الى القرن العشرين بمفردهم .

ان الاستشهادات السابقة قد تكون مختارة بشكل انتقائي، ويستطيع اساطين الصهيونية دحضها باستشهادات مختلفة . وبالفضل فان الادب الصهيوني يتضمن بعض النشاء على انجازات المسرب التاريخية ، وقد يتفنون في مناسبات مختلفة بحب العرب في اطار هنري . فان العرب واليهود ابناء عمومة . بيد ان الموقف الحقيقي تجاه العرب يمكن التوصل اليه في التحليل الاخير من خلال الآراء السائدة في المجتمع الاسرائيلي . فقد اظهرت الاستفتاءات التي اجريت في اسرائيل بان الاكثية الساحقة تؤمن بدونية العرب ، وهذا الاعتقاد ينمكس في كثير من الاقوال الشعبية . فمن الشائمة قولهم « عربي قذر » . كما ان الزواج من عربي لم يسمع به قط في اسرائيل ، لذلك يمكننا ان نستنتج بسهولة ، ان المدبح الطنان الموجه للعرب في بعض المناسبات ، يعود الى اعتبارات دعائية ليس الا .

ان الخطوة التالية ، الخطوة الاخيرة ، هي خطوة قاسية ناجمة عن الاعتقاد بدونية الاخرين ، وبالتالي الموافقة على اتخاذ الحق او حتى الواجب للتقرير مكانهم ، والسيطرة عليهم ، وفي النهاية ، ان اقتضت الضرورة ، مسحهم من الوجود .

ان دستور هتلر الجديد ، قد بنى ايديولوجية على اساس نظرية تربتشكه التي تعتقد بان الالمان ، لكونهم عرقا متفوقا ، يحملون رسالة توجيه الناس الاخرين والسيطرة على مصائرهم . وقد اضاف في تطبيق له في مسألة الالزاس : « نحن الالمان الذين نعرف كلا من المانيا وفرنسا نعرف ما هو الافضل لهم احسن منهم » (٢١) . وهذا الزعم نفسه قالته المانيا بعد ذلك بصند بولندا . وهذا هو شعار العنصريين في كل مكان وفي كل زمان ، كلما اقتنعوا على اضطهاد شعوب اخرى سواء كانت في جنوب افريقيا او في روديسيا او في الامبراطورية الاستعمارية السابقة .

وهذه كانت ايضا طريقة معالجة الصهيونية لمشكلة فلسطين . فقد اعترضوا - طيلة الانتداب البريطاني - على كل المحاولات المبذولة لاعطاء فلسطين شكلا من اشكال السلطة المنتخبة . وعلى الرغم من ذلك ، فان سبب اعتراضهم الرئيسي كان بسبب تخوفهم من انتخاب الكثرة عربية ، غير انهم لجأوا الى حجة ان العرب غير قادرين على تسيير امورهم ، ليس في فلسطين وحدها ، ولكن ايضا في الشرق الاوسط برمته .

وظل الادعاء القائل بان العرب لا يعرفون ما هو اصلح لهم جزءا من العناية الاسرائيلية . وقد استخلص كثير من المسؤولين الاسرائيليين المعروفين بصراحتهم النتائج الخطيرة والمساوية المترتبة على هذه النظرية . فقالوا ان العرب ليسوا في حقيقة الامر سوى قدامى الكنعانيين الذين استبقاهم الاسرائيليون في غزلة من الزمن. ويرى الحاخام العسكري ان ما كان ينطبق على هؤلاء في السابق يجب ان يطبق في وقتنا الراهن . ان العيش المشترك مع العرب غير ممكن على مدى طويل فيجب اما طردهم واما ان يكفوا عن التوجه بصادتهم نحو مكة .

واندى الحاخام الاسرائيلي « شاوول » وهو بصند الدفاع عن الجنود الذين قاموا بمذبحة قبية ، ان الجنود انما كانوا يقتلون اطفالا وتبين فقط ، دعا الى موتهم النبي موسى نفسه حينما امر بقتل الاطفال المدينين بعد السيف .

وعلى هذا فالمذبحة الاسرائيلية ليست اكثر من انتهاك فضيل . ومن جهة اخرى فقد وصف الحاخام عبيدة هدا سا غزو اسرائيل للاراضي العربية عام ١٩٦٧ على- انه تحرير للارض المقدسة من سطوة الشيطان (٢٢) .

نظرة الى الوراثة :

ان الايمان بنقاء السلالة يقود الى الايمان بالنموذج الاصلي على اعتبار انه بالتأكيد اتقى النماذج . ويؤدي هذا الى نوع من الحنين الى ذلك اليوم الذي ولدت فيه الامة لأول مرة والى الايام الاولى لنشوتها . ان اهتمام الموسيقار الالمانى فانغر بالاساطيسر الالمانية « مثال شديد الدلالة بهذا الصدد » . وكذلك الاهتمام بالنازي، الشامل بعث الثقافة ، والتقاليد ، والفولكلور ، والفنون والاعمال اليونية القديمة . ان العنصريين يكرهون هجوم الصناعة المعاصرة وظهور الطبقة العاملة . ولم يستطع نيتشه رغم تطلعه الى المستقبل والى انسانه المتفوق ، الا ان يصر في كتابه « هكذا تكلم زرادشت » عن كرهه للصناعة ورغبته في الهروب منها .

ان التطلع الى النقاء ادى ايضا الى تمجيد الطبيعة ، التي وصفها بكر « بالارستقراطية » . ومن التقاليد العنصرية الاخرى الاشمزاز من الماكياج ومساحق التجميل ، وحب القيم الريفيستة والفروسية ، والاهتمام بكل ما هو قديم .

وكتب تربتشكه « ان كرامة الدولة تكمن في تواصل الامة بفضل الاجيال المتعاقبة » واذاف قوله « ان الوثنية الحقلة مبنة على

ان التقليدية وسط هذا العصر العلمي لا يمكن الا ان تقود الى الروماتيكية والمثالية واللاعقلانية . فالعنصرية مشحونة بالمنافضات والطريقة الوحيدة لتجاوزها تكمن في اغرافها بالبلاغة الابدية . والشعار الصهيوني القائل : « الشعب الذي بدون وطن الى الوطن الذي بدون شعب » ، خير مثال على ذلك . ان رفض المواجهة الواقعية لحقيقة المستقبل مع العرب هو دليل آخر وان الطريقة التي تعالج بها الصهيونية مثل هذه الحقائق المرة تؤدي حتما الى اتهامها بالازدواجية والاحتيايل والترب . وفي الواقع فان الهوس بفلسطين لدى الصهاينة لا يمكن تفسيره على اساس منطقي كما اشار الى ذلك « ارنر كسلر » . ان اللاعقلانية من مظاهر العنصرية . فالعام والعرفه والعقل كلها امور نسبية ، فهي مرتبطة بعرفك وتوقف عند حدوده القومية .

اما القوانين الاخلاقية فما هي الا مخترعات استنبطتها جماعة لمصلحتها اثناء نضالها من اجل السلطة .

يقول نيتشه « ان هناك مستويين للاخلاق : مستوى للجماهير مبني على اساس الاوهام والدين ، والمستوى الاخر للزعماء ، وهو مبني على اساس الوعي والقوة . ان العوامل الاقتصادية لا اثر لها على الناس الذين تحركهم العواطف والمثاليات والميسول والشعارات والديابات . والى ذلك يجب ان نضيف التشاؤم والمساواة والديمقراطية والاخوة الانسانية فما هي الا مجرد اوهام والقانون الدولي هراء ، لانه « يتعارض مع طبيعة الدولة » . لقد عقدت المعاهدات للتحال على الظروف فقط . « فالدولة لا يمكنها ان تخضع مشيئتها فيما يخص المستقبل لمشيئة دولة اخرى » (٢٧) . وبالفعل فان القانون الدولي لا يعطي افضل ما عنده الا عندما يتعلق الامر بالحرب « وبدون حرب لن تكون هناك دولة على الاطلاق » . انها المهمة الرئيسية الثانية للدولة (٢٨) . ان واجب الدولة الصغيرة هو ان تتوسع وتصبح اكبر . « فلذا لم تستطع الدولة ان تكون جسما صلبا ومتجانسا ، فمن واجبها على الاقل ان تعدل حدودها بشكل مناسب (٢٩) » .

هيرتزل واللاعقلانية :

هناك دلائل كثيرة تؤكد وجود شنود عقلي لدى هيرتزل ، وهو ملمح نجده لدى الزعماء العنصريين . على اية حال فان يومياته تبين التأثير الهائل الذي تركته عليه العنصرية الالمانية . لقد تصور الدولة اليهودية على شكل ملكية يحكمها دكتاتور مستنير ، يعين نصف النواب . اما الشعب السياسي فيعاقب عليه بالموت لان الديمقراطية السياسية هراء . وتلك نماذج من بعض آرائه التي اوردتها في الدولة اليهودية . « ان الاخوة الانسانية لا تمثل حتى حلما جميلا » .

« فالتناقض ضروري بلورة اقصى ما لدى الانسان من طاقات »
« كل ما هو عاجز عن البقاء يمكن ان يدمر ، وسوف يدمر ،
ويجب ان يدمر » .

« القوة تتقدم على الحق »

« كل ما يخص العلاقات بين الامم هو مسألة قوة » .

« انني مؤيد شديد للمؤسسات الملكية لانها تسمح بانتهاج سياسة متماسكة وتمثل مصالح عائلية تاريخية شهيرة ولدت وتعلمت لحنكم » . -

« انني ارى انه من الجنون حل المشاكل بواسطة الاستفتاء الجماهيري » .

وهذا كله يظهر الاثر الخاص الذي تركته عليه تعاليم نيتشه .

ومن هنا نجم الاهتمام البالغ بالزراعة وحب الغابات . فالعنصرية قسمت البشر الى فئتين : سكان الغابات الذين يبنون الحضارات ، وسكان الصحاري الذين يودون بتلك الحضارات . وهكذا نشأ الاتهام المعادي للسامية الذي يعتبر ان اليهود ينتمون للفة الثانية ، على اعتبار انهم دون الامم الزراعية الاخرى ، لا يمتلكون آلهة انثوية او آلهة - ام » ، رمزا للخصب والتواصل . وقد عكست الصهيونية ذلك التقليد بكل مظاهره . فقد نادى بينسكروبيير ، وسوكولو ، « بالعودة الى الطبيعة » ، واصبحت العودة الى الارض « شعارا اساسيا من شعارات الحركة الصهيونية » .

لقد كانت الزراعة هي الفرع الاساسي من فروع العمل التي توجه اليها اليهود قبل اي شيء آخر . ذلك ان زراعة الارض كان ينظر اليها منذ البداية على اساس انها قاعدة اساسية من « قواعد الوطن القومي » (٢٤) .

طبعاً يمكن القول ان هذا لا علاقة له بالعنصرية ، بل انه واقعة من وقائع الحياة في بلد كفلسطين . ولكن فلسطين لم تكن في الحقيقة مركزاً زراعياً معتبراً .

فالحماس تجاه الزراعة والغابات كان غير طبيعي حقا وكتسب ابدا شعرة ، كما كان الحال مع مارتني بيير الذي اكد ان العالم لا يمكن ان يصلح الا باسرائيل ، وان لا يمكن ان تصلح الا بعودتها الى الارض (٢٥) .

وكما اشرنا الى ذلك آنفا ، فقد كانت العنصرية متبرالهجرة الى مستوطنات زراعية كحل للبطالة ، حيث ان المهاجرين يأخذون اماكن « السلاط الدنيا » التي لم تعد قادرة على الاستمرار في الصراع من اجل التطور ، كما اوضح ذلك نوردو . ومن الامور الفريسة في نوعها ان الوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية كانا على الدوام بين ايدي فسة من السياسيين - المزارعين .

وحتى يومنا هذا ، فان الحياة في المستوطنات الزراعية تعتبر الحياة المثالية بالنسبة للصهيوني الحقيقي . ولا أحد يجرو ان يتسائل عن سبب تبديد الاموال في الكبيوتات غير الاقتصادية . ان عودة بن غوريون بعد تقاعده الى صحراء النقب الجرداء ، ليرعى الماعز ، ويزرع الخضار ، ويتأمل في التوراة هو نموذج لكل ما هو تقليدي وبدائي وقومي وزراعي في المدرسة العنصرية .

وقد ادعى « احاد حاكام » الماخوذ بفكرة القوة المعنوية لليهود ، ان هذه القوة موجودة في اصولهم حتى قبل التوراة بزمان بعيد . ولقد كانت جزءا من قوتهم « القطرية » . وقد افرزوا بزمان مكانا فسيحا في مذكراته الصبائية ليروي كيف انه اهتز لمنظر الحياة الطبيعية للحيوانات في افريقيا وهي تعيش حتى بدون القلق من مشكلة المرب . واصناف قوله : « كم هو امر رائع حقا ، ان تكون حيوانا في ملاعب جنوب افريقيا » (٢٦) .

ان نظرية تربتشكه المتلفة بجلود العملية الوراثة قد جعلت من علم الاثار تمضية للوقت وهواية لعظم الاسرائيليين وعلى راسهم « موشى ديان » فكل واحد هناك ينقب من اجل العثور على بعض العظام او الاواني المكسورة . كما ان احياء اللفة المبرية والاسماء القديمة للناس والاماكن يبقى ضمن اطار هذه الدائرة . ان هذه الصورة تفسر التعاشي العجيب بين القنوس القديمة ، والممارسات الدينية ، والسلطة المطلقة لرجال الدين جنباً الى جنب مع التنظيم والتقنية الاكثر حداثة وعصرية .

وقد استمر من عبادة نيتشه للارادة ، شعاره القائل : « اذا اردته فليس ذلك باسطورة » .

وقد عاش هيرتزل منذ مطلع شبابه حياة طالب ألماني عنصري . فقد انضم الى جمعية « اليا » الفرقة في رجعتها وحمل شعاراتها واعجب بميولها العسكرية واشترك في مبارزاتها : « ان سست مبارزات ستكون ذات شأن كبير في تحسين اوضاع اليهود » . انه من الضروري ان تتمتع الدولة اليهودية بقوة عسكرية كبيرة ، وان تحقق انتصارات عسكرية . وفي احد احلامه العجيبة تصور نفسه محاطا بالبنادق والجنود الذين وصف بزاتهم بدقة (٣٠) .

وقد نصح في مجال آخر الدولة اليهودية برشوة جيرانها بالاعانات ، اى ان يحسن الوقت الذي يرى فيه القائد العسكري ان « بإمكان القوة اليهودية ان تغف ندا في وجه هذه الجمهوريات مجتمعة » .

وفي كتابه عن سيرة حياة هيرتزل ، لفت ديزموند سنيوارت الانتظار الى تكرار استشهاد هيرتزل بالعنصر و اشار الى ان استعماله للمصطلحات العنصرية لم يكن مدهشا بالنسبة لشخص عاش زمانه وتشرب ثقافته . ولكن بعد ذلك ، حينما ألتقى بيهودي غير وسيم ، تغلب عليه الملامح الافريقية ، استبدل العنصر بالقومية (٣١) .

سلطة الدولة :

ان فيلسوف الفاشية جانتايل كان يستعمل تعبيراً آخر للتدليل على سلطة الدولة . فالتعاونية بالنسبة اليه تعني « ان الانسان ليس فردا منفصلا ولكنه حيوان تواق لتشكيل جماعة وكل هذه الجماعات يجب ان تكون خاضعة للمجموعة الاعلى . الا وهي الدولة » . وهذا هو ملج آخر ، لا مهرب منه ، من ملامح العنصرية ، ولكن نسبته الى اسرائيل لا تبدو امراً سهلاً من النظرة الاولى على الاثر . ان معظم الدول العنصرية كانت دكتاتورية ولكن لا يمكن ، اعتبار اسرائيل واحدة من تلك الدول ، بقدر ما يتعلق الامر بالواطنين اليهود . وهذا هو سلاح الصهيونية ضد تهمة العنصرية . ان مطامح هيرتزل الاوتوفراطية قد نحتت جانباً . ان الديمقراطية الاسرائيلية على الطريقة الغربية هي العنصر الوحيد الشاذ في بنية عنصرية متكاملة . ولكن هذا العنصر من الممكن ايجاد تفسير له . فقد استست اسرائيل على صورة الحركة الصهيونية التي تمتد في اربعة انحاء العالم وتضم اناساً من اجناس و لغات مختلفة . فالحركة كانت تحتاج الى المال من اليهود الامريكان ، والسى المهاجرين من روسيا ، والى الحماية الاستعمارية من اوربا والى التعاون من جانب اليهود المشتميين .

وعلى الرغم من الهالة التي كانت تحيط به ، فقد انحصر هيرتزل من بيئة يهودية مندمجة في مجتمعها ، وكان يعتبر دخيلاً تحوم الشكوك حول اصله . لذلك كان من الضروري منذ البداية ايجاد قيادة جماعية وهيئة تمثيلية . ومنذ عام ١٨٩٧ تحول المؤتمر الصهيوني الى برلمان صهيوني . وتحت الانتداب البريطاني ، اصبح وجود الوكالة اليهودية شرطاً لا بد منه لخلق الوطن القومي . وبعد عام ١٩٤٨ احتاجت اسرائيل الى مهاجرين من الغرب ، وبدا انه من غير السهل اقتناع هؤلاء بالهجرة حتى مع وجود حكم ديمقراطي في تل ابيب . وقد يقبل الناس بالديكتاتورية ، حتى انهم قد يدعونيها اذا كانوا يعيشون في ظلها ، ولكن لا احد يرغب في الذهاب ووضع نفسه في قبضتها . فعمر اسرائيل اليوم اقل من ثلاثين سنة ، وهو عمر لا معنى له اذا اخذنا بعين الاعتبار طول عمر الدول . فماذا سيحلب المستقبل لمؤسساتها ؟ وكيف ستستمر فسى العيش اذا ما تقسرت الظروف ؟

وعلى الرغم من الحياة الحرة التي يحيها الاسرائيليون ، فان

بنور الديكتاتورية بادية بشكل واضح في تسلط الدولة . فمنذ البداية كانت المهمات الصعبة للحركة الصهيونية تقتضي باخضاع الفرد للفضية المشتركة فمدرسة « الصهيونية القافية » نادت حتى باضطهاد اليهود لدفعهم للهجرة الى اسرائيل . وقد تعرض يهود العراق الى هذا الاسلوب في عام ١٩٥١ ، حين تم القاء القبض على عملاء صهيانية بجريمة القاء القنابل على يهود بغداد لتخريفهم على الهجرة (٣٢) . أما اتهامات اليهود المعادين للصهيونية ، القائلة بمسؤولية الصهيونية عن التضحية بحياة عدد كبير من اليهود في اوربا النازية ، وفي اماكن اخرى لمصلحة الوطن القومي اليهودي ، فانها تثير سخط الاسرائيليين .

ولقد اصبحت التضحية اعظم الفضائل ، وبين الحين والآخر تقدم لنا الحكومة الاسرائيلية دلائل على سياسة حافة الهاوية التي تتبعها ، وعلى المخاطر والتضحيات التي تطلبها في خدمة تكتيكات واستراتيجية الدولة . وما حادثنا ميونيخ ومطار عينتية الا مثلاً حديثان على ذلك .

وقد قدمت لنا اسرائيل مثلاً من نوع آخر في اذار من عام ١٩٧٦ . ففي ذلك التاريخ اعترض العاحامون والجراحون على مطالب النساء بتسهيل الاجهاض ، واعتبروا ان هذه المطالب ستؤدي الى انتحار قومي لانها ستسبب انخفاض نسبة الولادات في اسرائيل . وكانت قد صدرت عن النازيين آراء مشابهة تتعلق بزيادة نسبة الولادات فيما يخص العرق الاري .

الجدور التاريخية :

ان اغلب الحركات القومية التي وقعت تحت تأثير العنصرية في القرن التاسع عشر لم تمارس سياسات تمييزية فعالة . وهي على كل حال لم تواظب في هذا الخط حتى ايماننا . ولكن الصهيونية ظلت حالة فريدة لاسباب تمتد الى ابعد من القرن التاسع عشر ، وتضرب جذورها عميقاً في التاريخ اليهودي . وهذا ما كان يجول في خاطر « احاد عامام » حين قال ان اليهود لم يكونوا بحاجة الى نيتشه لان اليهودية تشتمل على النيتشوية وعلى تصورهما للتفوق القومي .

ان هذا موضوع حساس وكثير من الناس يتحاشونه خشية ان يتهموا بالعداء للسامية . وهذا موضوع معرض ايضاً لتشويش كبير . وبالفعل ، فاليهودية كالدانات الاخرى ، فيها مستويات واتجاهات متعددة . ومن البداية ظهر فيها اتجاهان : الاول عالمي ، والثاني قبلي . ومع الاسف ، فان الصفوف على اليهود قد ساعدت دائماً على ترجيح كفة الاتجاه القبلي . ذلك ان سياسة « ارميا » الداعية الى الانتصار سرعان ما اتهازت امام عنصرية « عزرا » الجامدة وهو قد يكون على الأرجح اول عنصري حقيقي في التاريخ . فقد حرم الزواج من غير اليهود . اما الذين تزوجوا من غير اليهود فيجب عليهم ان يطلقوا . فقير اليهود نجسون ، وقد فرض الطهور كدلالة على التمييز . فحتى على الصعيد التجاري ، يجب على اليهود ان يفضلوا التعامل مع اليهود وان يمارسوا التمييز تجاه الاغراب . فالاختلاط بولد اتواً رديئة ، ويجب عدم مزج الانواع المختلفة من الحبوب والماشية . كما يجب عدم خلط القطن بالصفوف لان الانسجة تعالج كلها بنفس الطريقة دون الاخذ بعين الاعتبار نوعيتها .

وتحت الحكم العربي السمع في اسبانيا تبنى موسى بن ميمون قضية الاخوة الانسانية مرة اخرى . وقد نصح بن ميمون ، كما فعل « ارميا » من قبله ، اليهودي بان يكون احد ابناء البلد الذي يعيش

فيه . فليس هناك من اذى في العيش تحت سلطة حكام مسلمين او مسيحيين يهدون نفس آله الذي يعبد اليهود . « ان المؤمنين الى ايسة امة انتموا لهم حصه في العالم الذي سيأتي ما داموا يعترفون بالله بقدر ما وهبهم . ولكن اليهود لم يقرأوا بذلك ، ونددوا بان ميون عند الحكام المسيحيين واتهموه بالهرطقة واحرقوا كتاباته . وعلى العكس من ذلك فقد قبل شعور جهودا هيلفي على انه يمثل الوجدان اليهودي الحقيقي . وقد استشهد الدعائيون الصهانية بقصائده التي يحن فيها الى فلسطين مرات ومرات . وما يعنينا بشكل خاص هو كتابه « الخزاري » الذي اعتبره بعض التحدثيين بلسان اسرائيل كصدر الميول العنصرية في الحركة الصهيونية . فالكتاب يتحدث عن اليهود « كصفوة » الجنس البشري وعن عرقهم كالعرق المختار بين الامم . فالأفضلية معطاة لهم لا بسبب تقواهم او طاعتهم ولكن لاسباب فيزيولوجية وعلى اساس اختيار الهي :

« ان الرجل العاصي تنزل عليه النعمة الالهية اذا اخاف بامرأة طاهرة الدماء . فيستفيد ابناؤه وحفاده من نقاء نسبههم » (٢٣١) . فليس مدعاة للعجب ان تظهر السلطات الدينية في اسرائيل نفسها بمظهر العنصريين الاكثر تحجرا ، مما يسبب حرجا لرجال السياسة والصحافة . ولكن ما ان يتعلق الامر بالزواج المختلط ، وهو موضوع حساس يمكن على اسنائه التمييز بين من هو انساني ومن هو عنصري ، حتى تتساوى مواقف العاخين بمواقف رجال السياسة الصهانية . ومن المفيد ان نشير بهذا الصدد الى « احاد حعام » : فرغم ميوله الروحانية اعتبر ان اخته قد ماتت في نظره ، لمجرد انها تزوجت من شخص غير يهودي .

الخلاصة :

ان من اخطار سوء الفهم ، الاعتقاد بان شعبا من الشعوب لمجرد انه كان ضحية من ضحايا عقيدة ما فانه يكتسب مناعة ازاء انتقالها اليه . فالعكس هو الصحيح ، ذلك ان الشعوب تلبس بزوات فاتحيتها ومعذبيها .

فمن السداجة بمكان الاعتقاد انه بسبب ما فعله العدا للسامية باليهود ، فان الصهيونية ستكون محصنة ضد العنصرية . وقد لفت موريس ر . كوهين انظار اخوانه في الدين الى هذه النقطة منذ عام ١٩١٩ حين صرح : « ان هذا الميل المستمر لتأكيد الوعي والانتماء الى اجناس مميزة والذي نساعد بسبب ما اصاب اليهود من اضطهاد مناظم في السنوات الاخيرة قد دفع اليهود التحريرين حديثا الى اعتناق الفلسفة العنصرية للتاريخ وهي فلسفة جد شعبية متمثلة في الجانب الالائي بكتاب « اسس القرن التاسع عشر » لتشامبرلين ، وفي الجانب الروسي باصحاب الميول السلافية ك « كاتكوف » . والصهانية يدينون اساسا بالايديولوجية العنصرية لدى هؤلاء المنظرين المعادين للسامية ، ولكنهم يخرجون باستنتاجات مختلفة فيصبح اليهودي ، لا الالائي ، هو العنصر النقي او التفوق » (٣٤) .

وعلى كل حال فان للعنصرية الصهيونية جلورا اعق بكثير مما للعداء الاوروبي للسامية ومجال تحركها اوسع بكثير ايضا بسبب برنامجها الاستعماري . فالسكان العرب يشكلون بالنسبة لها هدفا عنصريا ممتازا ، بسبب اختلاف لون بشرتهم ودينهم وثقافتهم ومعارفهم المنيذة . ان كثيرا من الاجراءات والمواقف التمييزية التي اتخذتها الوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية كانت تتجاوز حدود متطلبات الامن ، وحاجات وضرورات الظروف . ان الحجم الذي اتخذته مثل هذه السياسة التمييزية ، لم يكن من السهل تصوره دون اسس ايديولوجي .

فمعاملة اسرائيل لغير اليهود وعزمها بشكل خاص على مقاومة كل انصهار لا يمكن ان يفهما بصورة كاملة الا بمفهوم عنصري مما يفسر بدوره عنف الاحتجاجات الصهيونية ضد اتهامها بالعنصرية .

المحواشي :

- ١ - بولياكوف ، « الاسطورة الآرية » ، لندن ، ١٩٧١ ص ٢٨١ .
- ٢ - ذكرت في نفس المصدر السابق ص ٢٨٤ .
- ٣ - نيتشه ، ف . « ارادة القوة » ، لندن ، ١٩٦٨ ، ص ٩٣ .
- ٤ - بولياكوف ، ص ٣٠٠ .
- ٥ - بحث وارد في كتاب « اعاده النظر في الصهيونية » ، م . سلزر ، لندن ، ١٩٧٠ .
- ٦ - بنتويش ، ن . « احاد حعام وفلسفته » جسر . ١٩٢٩ ص ١١٢ .
- ٧ - يعتبر لامبروسو على سبيل المثال ان سبب كثرة الجرائم في كالابريا وصقلية وسردينيا يعود اساسا الى وجود « عناصر اهريفية وشرفية » .
- (لامبروسو ، س ، « المجرم » ، لندن ، ص ١٤٠ .
- ٨ - نوردو ، م « الانحلال » ، لندن ، ١٨٩٦ ، ص ١٨ .
- ٩ - نفس المصدر السابق ، ص ٥٣٦ .
- ١٠ - نفس المصدر السابق ، ص ٥٤١ .
- ١١ - ذكرت عند « بولياكوف » ، ص ٢٧٤ .
- ١٢ - باين ، أ . « تيودور هيرتزل » لندن ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠٦ .
- ١٣ - المجرم ، تلخيص ج لامبروسو ، نيويورك ، ١٩١١ ص ١٤٠ .
- ١٤ - خطاب القبي في حزيران ١٩١٥ ، « Brandeis on zionism »
- واشنطن ١٩٤٢ .
- ١٥ - « كفاحي » جامس ماري ، لندن ، ١٩٢٩ ، ص ٢٥١ .
- ١٦ - سوكولو ، ن . « تاريخ الصهيونية » ، لندن ، المجلسد الثاني ص ٦ .
- ١٧ - تريتشكه ، ه « السياسة » ، لندن ، ١٩١٦ ، ص ٢٧٦ .
- ١٨ - « روما والفسس » .
- ١٩ - زيف ، و . ب . « اغتصاب فلسطين » ، لندن ، ١٩٤٠ .
- ٢٠ - نفس المصدر السابق .
- ٢١ - ماك ففرن ، و . ب . « من لوتر الى هتلر » ، ١٩٤٦ ، ص ٣٦٧ .
- ٢٢ - « اسرائيل ، واساوة استخدام الدين اليهودي » بقلم ب . شافي ، ميد ايسنت انترناشيونال .
- ٢٣ - ماك ففرن .
- ٢٤ - كوهين ، ي . « الحركة الصهيونية » ، لندن ، ١٩٤٩ ، ص ١٥٩ .
- ٢٥ - بوبر ، م « اسرائيل وفلسطين » ، لندن ، ١٩٥٠ .
- ٢٦ - وايزمان ، س . « التجربة والخطا » ، لندن ، ١٥٠ ، ص ٤٣ .
- ٢٧ - تريتشكه ، « السياسة » ، ص ١٦ ، ص ٥ .
- ٢٨ - نفس المصدر السابق ، ص ١٢٤ ، ٢١ .
- ٢٩ - تريتشكه ، ذكره ماك ففرن .
- ٣٠ - « اليوميات الكاملة » ، ص ٤٠ .
- ٣١ - ستيوارد ، « تيودور هيرتزل » ، لندن ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
- ٣٢ - موجز المحاضر ، فهمي ، ١ ، « سوموم الافى » بغداد ١٩٥٢ .
- ٣٣ - كتاب « خزاري » او كسفورد . MCMXLVII ص ٢٢ ، ٤٧ .
- ٣٤ - كوهين ، م . ر . « الصهيونية ، القبلية او الليبرالية » ، هوج . فد . سميت ، « الصهيونية ، الحلم والواقع » ، لندن ، ١٩٧٤ ص ٥٠ .